أثر الحج في اتحاد كلمة المسلمين

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم حمروش

شيخ كلية اللغة العربية

وحدة الأمة مصدر خيرها وسعادتها ، ومبعث رقيها وكمالها ، وأساس عزها وشرفها . فما اتحدت أمة من الأمم إلا قوى أمرها ، وعز جانبها ، وحالفها الفوز والنصر ، وكتب لها التوفيق في كل شأن من شؤون حياتها ؛ وما تفرقت أمة من الأمم إلا دانت وذلت ، واستكانت واستخذت ، وتسلط على أمرها غيرها يسومها الخسف والصغار ، ويوردها موارد الهلكة والدمار .

وقد عنيت الشريعة الإسلامية بالدعوة إلى توحيد كلمة المسلمين في الدين ، والنهي عن التشقق والتفرق فيه ، فقال عز من قائل :

" وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ، وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ، وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " .

وقال تعالى :

" إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ " .

وقال تعالى :

" شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ " .

وكذلك نهتهم عن التنازع وطالبتهم برد المتنازع فيه إلى الله ورسوله ، وطالبتهم أيضا بالوقوف عند الحكم والإذعان له والتسليم به ، قال تعالى :

"وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ" .

وقال تعالى :

"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" .

وقال تعالى :

"فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا" .

وكما طالبت الشريعة المسلمين أن تتحد كلمتهم دعتهم إلى ما يحقق الوحدة ويؤكد الروابط ويقوى الصلات بينهم من الإخاء والائتلاف والتراحم والتعاطف والتحاب والتواد والتعاون والتناصر حتى يكونوا أمة قوية البناء يرهبها ويكبرها الأعداء .

قال تعالى :

"إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ" .

قال صلى الله عليه وسلم : "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" . وقال عليه السلام : "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . ثم شبك بين أصابعه" . وقال عليه السلام : "الدين النصيحة . قالوا لمن ؟ قال : لله ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم" . وقال عليه السلام : "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" .

وكذلك نهاهم عما يبدد شملهم ، ويفرق كلمتهم ويهدم بنيانهم من التحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر وما إلى ذلك من العلل الخلقية التي تفتك بوحدتهم وتقطع أوصالهم وتجرهم إلى مهاوى الذلة والهوان .

قال عز من قائل :

" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ " .

وقال تعالى :

" وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ " .

وقال صلى الله عليه وسلم : " إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث . ولا تحسسوا ولا تجسسوا ، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا . ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " .

وقال عليه السلام : " كل المسلم على المسلم حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه " كما دعتهم إلى عبادة الله والتقرب إليه لما في ذلك من الأثر الحسن في بناء وحدتهم وتقوية الروابط بينهم والقضاء على أسباب نزاع والشقاق والفرقة والخصام لأنها تطهر النفوس من أدران الرذائل وتقضي على أصول الشر فيها وتغرس في النفوس محبة ومودة ورحمة وعطفا وتعاونا وتناصرا ، وما شرعت الجماعة في الصلاة إلا لأنها تبعث في النفوس شعورا بأن الاجتماع الحسي على طاعة الله تعالى والتقرب إليه ينبغي أن يكون داعيا إلى تقارب الأرواح وائتلافها وباعثا على توادها وتراحمها وتعاطفها وتناصرها .

وإن من أكبر المظاهر الدينية التي تجمع بين الشعوب المتباينة الأصقاع والأمم المختلفة البقاع ، وتتجلى فيها الأخوة أجلى معانيها حج بيت الله الحرام . فرضه الله على المستطيع من عباده ونعى على من يتخلفون عن أداء تلك الفريضة وبالغ في الإنكار عليهم فقال عز من قائل :

" وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ " .

وقال صلى الله عليه وسلم "من وجد زادا وراحلة وأمكنه الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا و إن شاء نصرانيا" وقال عليه السلام: "حجوا قبل ألا تحجوا" .

هذا، و إن فى الحج فوائد دينية واجتماعية تعود على المجتمع الإسلامى فى مختلف الأقطار وكلاهما مصدر خير وبركة وسعادة .

أما الفائدة الدينية فإنه يعد العباد و يهيئهم لفيض الرحمة والمغفرة والثواب الجزيل والخير العميم، يخرجون من ديارهم النائية غير آبهين بما تركوا وراءهم من أهل ومال، ولا مكترثين بما يصادفون من صعاب و يتحملون من مشاق تلبية لدعوة الله وإطاعة لأمره و يجتمعون فى البقاع الطاهرة والأماكن المقدسة شعثا غبرا سواسية لا فرق بين غنى وفقير وعظيم وحقير وصغير وكبير ، ينتقلون من مشعر من مشاعر الحج الى مشعر ، ومن مشهد إلى مشهد وفيهم يقول القائل :

تحلَّى بأسنى الحَلْيِ واحتَلِي الغِنَى فافضل من أمثالك النفر الشُّعْث
يسيرون بالأقدام فى طلب العـلا الى الله حَزْنٌ ما توطأن أم وَعْث
وما فى يد قُلْب ولا أسْؤُقٌ بُرّى ولا مفـرَق تاج ولا أذن رَعث

يسيرون خاضعين خاشعين مستكينين لعزة الله ملحين فى التضرع والدعاء يستمطرون الله الرحمة والمغفرة و يستنزلون الثواب الجزيل الذى أعده الله لعباده الذين يحجون بيتــه و يعظمون شعائره و يتقربون إليه، وهنا يتجلى ذل الرق وخضوع العبودية على أتم وجه وأكمله أمام جلال الربوبية وعزتها فتفاض الرحمات وتنزل البركات و يتجاوز الله عن الذنوب حتى الذنب الجسام و يعفو عن الآثام حتى الإثم العظام .

فقد أسند محمد بن جعفر الى النبي صلى الله عليه وسلم: إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة .

وقال صلى الله عليــه وسلم : " من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " .

وقال عليه السلام : " حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها. وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة " .

وقال عليه السلام : " الحاج والعمار وفد الله وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوه استجاب لهم وإن شفعوا شفعوا " .

وأما ما يعود على المجتمع الإسلامي عامة فهو ما تتركه تلك الفريضة من توكيد الصلات وإحكام الروابط بين المسلمين في جميع البقاع ، فقد اجتمعوا في صعيد واحد وفي زمان واحد وعلى هيئة واحدة لغرض واحد وغاية سامية ، كلهم سواء في تعظيم الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه يستشعرون رهبته وعظمته ويستيقنون أنه ما وحد بينهم في هذه العبادة وما جمعهم في تلك البقاع المقدسة إلا ليكون ذلك إيحاء ورمزا بوجوب اتحاد كلمتهم وضم شملهم وتوحيد رأيهم ويرجع كل فريق إلى وطنه وقد وقف على حالة كل شعب من شعوب المسلمين ، وأدرك ما يحتاج نفوسهم فينشر بين قومه مزايا إخوانه ويعبر عن آمالهم ، ويترجم عن رغباتهم ومراميهم في مختلف نواحي الحياة فتتكاتف الشعوب على ما يوفر لهم الخير ويجلب لهم السعادة وتتناصر فيما يكسبهم القوة والمنعة والاتحاد وغرة السلطان فتأتلف نفوسهم وتتحد كلمتهم وذلك غرض من أنبل الأغراض وأشرفها ، ومقصد من أرفع المقاصد وأخطرها ، فجدير بالمسلمين أن يلتفتوا إلى تلك الغاية وأن يعملوا على تحقيقها ليكون حجهم محققا كل آثاره جامعا كل فوائده ومنافعه ، فيعز منهم الجانب وتقوى الشوكة ويعلو السلطان ، ذلك مرجو أن يتحقق في أقرب الأزمان ، قال تعالى :

" وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَائِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِۦ " .

هذا وقد جرت سنة الله في عباده أن يختبرهم بألوان شتى من الاختبارات ، ليتميز الخبيث من الطيب

قال تعالى :

" وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً " .

وقال تعالى :

" وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ " .

وقال تعالى :

" أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ "

وقال تعالى :

" وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ " .

وقد صرنا فى أشهر الحج ، وأظلتنا أيام عبادته ، والناس فى حال تزداد فيه الصعاب ، وتكثر المشقات ، ويساورهم قلق ، ويداخلهم خوف ، وفى هذا ابتلاء من الله لعباده ، واختبار لما تنطوى عليه الصدور ، وتضمره القلوب ، لتتاز النفوس الصادقة الإيمان القوية العزائم ، التى تمشى إلى الخير قدما ، راضية مطمئنة ، صابرة محتسبة ، لا تصدها الصعاب ، ولا تصرفها المشقات ، لتنال الثواب العظيم ، والخير الأوفى .

فمن أقدم على الحج غير مبال بما يعانى من مشاق ، ويصادف من مكاره ، كان له من الثواب ما يناسب صدق إيمانه ، وقوة عزيمته ، فى هذه الحال التى يتخذ منها ضعاف النفوس أعذارا ، ومرضى القلوب أسبابا للإحجام عن فعل الخير ، وعمل البر .

ولكن لنا فى أسلافنا الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، فقد كان منهم من يقوم بأعمال هى أفضل من الحج ثوابا ، وأكثر منه مشقة وإعنانا ، ولم معها العذر المبيح ، والحجة الواضحة

عند الله وعند الناس ، ولم تقعده أعماله هذه عن اقتحام أخطرالطرق وأشقها حاج بيت الله الحرام ، ابتغاء رضوان الله والتقرب إليه ، فضم بذلك خيرا إلى خير ، وثوابا إلى ثواب .
فقد روى أن خالد بن الوليد رضى الله عنه ، لما انتهى من معركة يوم فراض لخمس بقين من ذى القعدة أجراه أمير المؤمنين أبو بكر الصديق أن يسير الى الحيرة فأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم ، وأمر شجرة ابن الأعز أن يسوقهم ، وأظهر أنه فى الساقة ثم خرج إلى الحج مكتتما حجه ومعه جماعة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت ، فتأتى له مالم يتأت لدليل ولا رئبال ، فسار طريقا من طرق الجزيرة ، لم ير أعجب منه، ولا أشد صعوبة فكانت غيبته عن الجند يسيرة ، فلم يواف إلى الحيرة آخرهم حتى وفى مع صاحب الساقة ، فقدما معا وخالد وأصحابه محلقون " وذلك مثل من أعلى المثل يدل على مقدار حرص السلف على طاعة الله . وفق الله هذه الأمة لما فيه خيرها ورشادها م

ابراهيم حمروش

قال رجل للحسن بن على :
إنى أكره الموت .
فقال له الحسن
ذلك أنك أخرت مالك ولو قدمته لسرك أن تلحق به .
يريد أنه لو أنفق ماله فى الخير لما خشى الموت .